في الاجتماع اللغوي

تطور اللغة وارتقاؤها

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

انتقال اللغة من السلف إلى الخلف : التطور الجبري ؛ مظاهره في لغة الحديث ولغة الكتابة

تتأثر اللغة في تطورها وارتقائها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى أربع طوائف :

(إحداها) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف

(وثانيتها) تأثر اللغة بلغة أخرى

(وثالثتها) عوامل اجتماعية ونفسية وطبيعية ، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ، ومناحي وجدانها ونزوعها ، وبيئتها الجغرافية .. وما إلى ذلك[1]

(ورابعتها) عوامل أدبية ، تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ، وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها[1]

وسنعالج بإجمال في هذه الكلمة الطائفة الأولى من هذه العوامل ، مرجئين الكلام عن العوامل الأخرى إلى المقالات التالية

* * *

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به ، فإن لغة الخلف في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر ، وبخاصة مظاهر الصوت

ويرجع جزء يسير من نواحي هذا الاختلاف إلى أمور خاصة مقصورة على بعض الأفراد كالعيوب الصوتية التي يصاب بها بعض الناس ، وضعف السمع ، واختلال أعضاء النطق ... وما إلى ذلك ؛ وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير في تطور اللغة ؛ لأن آثارها مقصورة على أصحابها ، تبقى معهم وحدهم في حياتهم وتختفي بموتهم

(١) ترجع في الواقع هذه الطائفة من العوامل إلى الطائفة الثالثة ، لأن آداب الأمة ليست إلا مظهراً من مظاهر حياتها الاجتماعية . ولكننا آثرنا فصل الطائفتين لاختلاف آثار كل منهما بهذا الصدد عن آثار الأخرى

(١) تشترك هذه العوامل جميعا في أنها من مقومات الحياة الاجتماعية ، وتلك جعلناها طائفة واحدة على الرغم من اختلافها في نوعها .

في هذا الكتاب أربع وعشرون ترجمة لبست جميعاً ثوب الصدق في حدود ما وصل إلى المؤلف من أخبار مَن ترجم لهم . ومن المؤكد أن هذا الكتاب يسدّ فراغاً في تصوير بعض معالم العهد الذي عاش فيه المؤلف ، ففيه أخبار سياسية وأدبية واجتماعية لم يتحدث عنها أحد من قبل بهذه الدقة وبهذا التفصيل

ونحن نأسف على أن لم يُكتَب لتيمور باشا أن يقف جهوده على هذا اللون من التاريخ ، فلو أن الله كان وفقه إلى ذلك لأتى بالأعاجيب في تسجيل الحوادث وترجمة الرجال

وقد التزم تيمور باشا في هذا الكتاب التواريخ الهجرية أو كاد، والتزم العبارات القديمة في وصف بعض الأشياء ، فالعزبة هي الضيعة ، والجنيه هو الدينار ، ودخول الإنجليز مدينة القاهرة كان يوم الخميس مستهل ذي القعدة سنة ١٢٩٩ . وتلك من لوازم تيمور باشا الذي كان يريد أن يجعلنا عرباً ومسلمين في جميع الشؤون ، أحسن الله إليه بقدر ما أحسن إلى العروبة والإسلام !

وتيمور باشا في كتابه يجسّم الحسنات ويتغافل عن السيئات. وإذا قهره التاريخ على تسجيل سيئة أحاطها بعبارة من عبارات التشكيك ، أو اعتذر عنها بلطف ورفق ، حتى ليمكن الحكم بأن الرجل أراد أن يكون كتابه من كتب الأخلاق الصِّحاح . وكيف لا يكون مراده كذلك وقد شهد طرفوه وشهدت آثاره بأنه كان من أرباب القلوب

ولا تجد في هذا الكتاب عبارة تشير إلى أن تيمور باشا كان يرتب ويصنف ويؤلف ، فهي أحاديث أخذ بعضها برقاب بعض في يسر وسهولة واتساق ، وذلك شاهد القدرة على التعبير الخالي من التكلف والافتعال

وقد أكثر تيمور باشا من الترحم على من ترجم لهم ، فعليه رحمة الله ، وعلى الهراوي رحمة الله، وعلى عبد المطلب رحمة الله ، فقد كانا بريئه إماماً في الأدب واللغة والتاريخ ، ولهما في البكاء عليه قصائد جياد

زكي مبارك

أما معظم نواحي هذا الاختلاف وأكبرها أثراً في تطور اللغة فترجع إلى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم ، كالارتقاء الطبيعي لأعضاء النطق في الفصيلة الإنسانية (لأن أعضاء النطق في تطور طبيعي مطرد ، فتختلف في كل طبقة عنها في الطبقة السابقة لها) والارتقاء الطبيعي للظواهر النفسية (فالقوى العقلية بمختلف أنواعها في تطور طبيعي مطرد، شأنها في ذلك شأن أعضاء النطق. ومن الواضح أن كل تطور يحدث في هذه القوى ينبعث صداه في اللغة) والأخطاء التي تنتشر بين الصغار في طبقة ما ولا يفطن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يهملون إصلاحها ولا يعنون بالقضاء عليها . فالفروق اللغوية الناشئة عن هذه الطائفة من العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم

ومن هذا يظهر أن ناحية هامة من نواحي التطور اللغوي ترجع إلى عوامل جبرية لا اختيار للانسان فيها ، ولا يد له على وقف آثارها أو تغيير ما تؤدي إليه

ومن هذا يظهر كذلك أنه ليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص . فمهما أجادوا في وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها ، وضبط قواعدها وأصواتها ... ، ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير في السبيل الذي تريدها على السير فيه سنن التطور والارتقاء الطبيعيين

حقاً إنه يمكن أحياناً التحكم في لغة الكتابة والجمود بها زمناً طويلاً على أصولها القديمة أو ما يقرب منها ؛ ولكن لغة الكتابة التي تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلاً صحيحاً حالة الحياة اللغوية في الأمة ، وتتسع كثيراً مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة ، لأن هذه اللغة الأخيرة في تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سبيلاً . فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى ، ويصبح تعليم لغة الكتابة في الأمة أشبه شيء بتعليم لغة أجنبية . وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة هي اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ؛ وما عليه الحال الآن في مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة في هذه الممالك

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال . فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تكوينها ، واكتمل نموها ، واتسع متنها ، ووضحت دلالة مفرداتها ووجوه استخدامها ، وتشعبت فيها فنون القول ، ودقت مناحي التعبير ، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة وتستلبها وظائفها وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعها ، فتصبح هي لغة الكتابة ، وتقذف بلغة الكتابة القديمة في زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة ، في حالات كهذه ، بجبل ثلج ثابت على سطح البحر ؛ ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التي تموج من تحته . فمهما طال بقاء هذا الثلج ، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان ، وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر ، وتعيد إليه ما كان مستوراً تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة : « سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في مجلدين .
وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد